الفصل الرابع

نظريات الترجمة
LES THÉORIES DE LA TRADUCTION

نجد إلى جانب المقاربات التي تشير إلى توجه عام للدراسات انطلاقا من وجهة نظر مجالات علمية خاصة (لسانية، وسيميائية، وبراغماتية، وتواصلية، إلخ.) عددا من النظريات الخاصة بالترجمة. إن "نظريات" الترجمة أبنية مفهومية تفيد في وصف النص المترجم أو عملية الترجمة وشرحهما أو نمذجتهما. وإنها تنطوي، حتى لو كانت ناجمة عن أطر مفهومية موجودة، على خصوصية تتمثل في أنها حصرية، أي في أنها تقترح تأملا يركز على الترجمة فقط. فهذه النظريات، على العكس من المقاربات التي تميل إلى إلحاق الترجمة بالمجالات العلمية القائمة، تسعى إلى تعزيز استقلال علم الترجمة. ويبقى أن طبيعة نظرية الترجمة تجعل منها مجالا للدراسات متداخلة المجالات العلمية بامتياز. وسوف أقدم فيما يلي نظريات الترجمة الرئيسة والمعروفة.

(١) النظرية التأويلية

إن النظرية التأويلية في الترجمة معروفة باسم "مدرسة باريس" لأنها عرضت في المدرسة العليا للمترجمين التحريريين والمترجمين الشفهيين (ESIT، باريس). وإننا ندين بهذه النظرية إلى دانيكا سيليسكوفتش Danica Seleskovitch وماريان

لوديرير Marianne Lederer، ولكنها اليوم تحظى بعدد كبير من المؤيدين والمروجين لها في العالم الفرانكفوني.

يعود أصل هذه النظرية إلى الممارسة الاحترافية لدانيكا سيليسكوفتش التي استندت إلى تجربتها في الترجمة في المؤتمرات لوضع نموذج في الترجمة من ثلاث مراحل: التأويل، وتحرير المعنى من ألفاظه الأصلية déverbalisation، وإعادة الصياغة.

يقترض هذا النموذج مسلماته النظرية من علم النفس، ومن العلوم الإدراكية في عصره، مع اهتمام خاص بالعملية الذهنية في الترجمة. إن هم النظرية التأويلية الرئيس هو مسألة "المعنى". المعنى ذو طبيعة "غير كلامية" لأنه يركز على ما يقوله المتكلم (الصريح) وعلى ما يسكت عنه (الضمني). وينبغي على المترجم في سبيل إدراك هذا "المعنى" أن يمتلك "معارف إدراكية" تشمل معرفة العالم، وإدراك السياق، وفهم "ما يعنيه" الكاتب. وإن عدم امتلاك هذه المعارف تعرض المترجم لمواجهة مشكلة الغموض الشائكة وتعدد التأويلات، وهي مشكلة يمكن أن تعطل استعداده للترجمة.

ترى دانيكا سيليسكوفتش أن الأمر يتعلق قبل كل شيء بسؤال "الإدراك": هناك، من جهة، إدراك الأداة اللغوية (إدراك داخلي)، ومن جهة أخرى، إدراك الواقع (إدراك خارجي). يعني ذلك أن عملية الترجمة ليست مباشرة، وأنها تمر بالضرورة بمرحلة وسيطة هي مرحلة المعنى الذي ينبغي تحريره من ألفاظه الأصلية. إنها عملية فهم ديناميكية، وعملية إعادة التعبير عن الأفكار.

لقد أتى جان دوليل Jean Delisle ، امتدادا لأفكار سيليسكوفتش، بنسخة من النظرية التأويلية أكثر تفصيلا وأكثر تقنية، وذلك باللجوء إلى تحليل الخطاب واللسانيات النصية. درس دوليل على وجه الخصوص مرحلة المفهمة في عملية النقل بين اللغات، واعتبر أن عملية الترجمة تمر بثلاث مراحل:

أولاً: مرحلة الفهم: التي تقوم على فك شيفرة النص الأصل، وذلك بتحليل العلاقات الدلالية بين الكلمات وتحديد المضون المفهومي بواسطة السياق.

ثانياً: مرحلة إعادة الصياغة: التي تستوجب إعادة التعبير بالألفاظ عن مفاهيم النص الأصل بلغة أخرى، وذلك باللجوء إلى الاستدلال وتداعي الأفكار.

ثالثاً: مرحلة التحقق: التي تهدف إلى تثبيت خيارات المترجم، وذلك بإجراء تحليل جودة المعادلات بطريقة الترجمة الارتجاعية rétro-traduction[١].

وتدمج ماريان لودير Marianne Lederer هذه الأفكار في كتابها *الترجمة اليوم* (١٩٩٤)[٢]، وتقدم رؤية عامة تساعد على إدراك مداخل "النموذج التأويلي" ومخارجه.

يرتكز "النموذج التأويلي" على ثلاث مسلمات جوهرية، ألا وهي:

١- كل شيء تأويل.

٢- لا يمكن أن نترجم من دون تأويل.

٣- البحث عن المعنى وإعادة التعبير عنه هما القاسم المشترك لكل الترجمات.

وتلخص ماريان لوديرير (Lederer 1994: 11) انطلاقا من هذه المسلمات ثوابت النظرية التأويلية الرئيسة: "أثبتت النظرية التأويلية [...] أن عملية الترجمة تقوم على فهم النص الأصل، و تحرير شكله اللغوي من ألفاظه الأصلية، والتعبير عن الأفكار التي تم فهمها والمشاعر التي تم الإحساس بها بلغة أخرى".

يتعلق الأمر كما نرى بنموذج تأويلي يمر بثلاث مراحل، وتكمن أصالته أساسا في المرحلة الثانية التي تسمى مرحلة "التحرير من الألفاظ الأصلية"، وهي مرحلة أساسية في عملية الترجمة.

---

(١) (هي إعادة كتابة النص المترجم باللغة الأصل وتسمى أيضا أحيانا rétroversion. المترجم).

(٢) (صدرت طبعة ثانية ومنقحة من الكتاب في عام ٢٠٠٦ لدى دار النشر Lettres modernes Minard, cahiers Champollion, Caen. المترجم).

ويشكل هذا النموذج بفضل فعاليته إعادة طرح للمقاربات التقليدية القائمة على تمييز مرحلة الفهم في اللغة المصدر ومرحلة تليها هي مرحلة إعادة التعبير في اللغة الهدف: "يقوم فعل الترجمة إجمالا على فهم "نص"، وفي مرحلة ثانية، على إعادة التعبير عن هذا "النص" بلغة أخرى" (Lederer 1994: 13).

يتطلب تأويل معنى نص تحديد المستوى الذي نقف فيه: "ينبغي منذ البداية التمييز بين اللغة، والجمل، والنص، لأنه إن أمكننا الترجمة في كل مستوى منها، فإن عملية الترجمة ليست نفسها عندما نترجم كلمات، وجملا، أو نصوصا" (Lederer 1994: 13).

لقد قاد هذا التمييز (الكلمات، والجمل، والنصوص) مدرسة باريس إلى تمييز نمطين من الترجمة: "أضع تحت مسمى الترجمة اللغوية ترجمة الكلمات وترجمة الجمل خارج السياق، وأطلق اسم الترجمة التأويلية أو الترجمة ترجمة النصوص" (Lederer 1994: 15).

وترى لوديرير أنه لا يمكن تصور الترجمة الحقيقية إلا نسبة إلى النصوص، أي في إطار خطاب، ووفقا لسياق معين: "الترجمة التأويلية هي الترجمة بالتعادل، والترجمة اللغوية هي الترجمة بالتقابل [...] فالفرق الجوهري بين التعادل والتقابل هو أن الأول يتم بين النصوص، وأن الثاني يتم بين العناصر اللغوية"(Lederer 1994: 51).

يشكل تحديد المصطلحات هذا جانبا مهما في النظرية التأويلية. وتعرف لوديرير بطريقة صارمة الأدوات المفهومية التي تساعدها على تصور عملية الترجمة. يشغل "المعنى" و"ما يعنيه" الكاتب مكانة جوهرية في هذا النموذج: إن معنى جملة هو ما يريد كاتب التعبير عنه عن عمد، وليس السبب الذي يتكلم من أجله، وأسباب ما يقوله أو نتائجه" (سيليسكوفتش Seleskovitch). ونتيجة لذلك، "تقر النظرية التأويلية للترجمة

التي أثبتتها التجربة أنه ينبغي إعادة التعبير عن دلالات الأشياء". وتضيف لوديرير (Lederer 1994: 90) الملاحظة التالية: "إننا نقول اليوم بطيب خاطر "المرجع" أكثر من "الشيء".

خلاصة القول: إن النظرية التأويلية للترجمة تركز على الهدف بمعنى أنها تبدي اهتماما خاصا بالقارئ الهدف، وبوضوح الترجمة الناتجة، وبمقبوليتها في الثقافة المتلقية.

(٢) نظرية الفعل

لقد عرضت جوستا هولز- مانتاري Justa Holz-Mānātri (١٩٨٤) نظرية الفعل في الترجمة في ألمانيا. ينظر إلى الترجمة في سياق هذه النظرية على أنها قبل كل شيء عملية تواصل بين الثقافات، تهدف إلى إنتاج نصوص تلائم مواقف خاصة وسياقات مهنية. وتعتبر الترجمة من جراء ذلك أداة للتفاعل بين الخبراء والزبائن.

وتستند هولز- مانتاري في عرضها هذا المفهوم البراغماتي إلى نظرية الفعل، وإلى حد واسع، إلى نظرية التواصل. وقد تمكنت بذلك من توضيح الصعوبات الثقافية التي ينبغي على المترجم أن يتغلب عليها عندما يتدخل في بعض السياقات المهنية.

إن هدف نظرية الفعل هو ترويج ترجمة وظيفية تساعد على التغلب على العوائق الثقافية التي تمنع حدوث التواصل بطريقة فعالة، وللوصول إلى ذلك، تنادي هولز- مانتاري (Holz- Mānātri 1984: 139) قبل كل شيء بالحد الأدنى من تحليل النص الأصل الذي يقتصر على "البناء والوظيفة". وترى أن النص الأصل مجرد أداة لاستخدام وظائف التواصل بين الثقافات، وأنه ليس له قيمة ذاتية، وأنه خاضع كليا للهدف التواصلي الذي يحدده المترجم. وينبغي أن يكون اهتمام المترجم الرئيس بالرسالة التي يجب نقلها للزبون وهذه الرسالة حصرا، فقبل أن يقرر التعادل الذي

سوف يستخدمه، ينبغي على المترجم أن يتصور الرسالة في الثقافة الهدف، وأن يقدر مدى مقبولية الموضوع في اللغة الهدف.

تقوم فكرة "الجانبية "النصية في هذا المنظور بدور مركزي لدى هولز- مانتاري. تعرف هذه "الجانبية" نسبيا وفقا لوظيفة النص في الإطارات النوعية الموجودة في اللغة الأصل وفي اللغة الهدف.

ويبدو المترجم من وجهة النظر هذه الحلقة الرئيسة التي تربط المرسل الأصلي للرسالة بمتلقيه النهائي. وهو المخاطب المفضل للزبون، ومسئوليته تجاهه مسئولية أدبية كبيرة. وتشرح هولز- مانتاري (Holz-Mäntäri 1986: 363) مطولا المزايا الحرفية المطلوبة والعناصر التأهيلية الضرورية لتطوير هذه المزايا.

إن تصور نظرية الفعل في الترجمة بهذه الطريقة يجعل منها في الواقع مجرد إطار لإنتاج النصوص الاحترافية متعددة اللغات. وإن فعل المترجم يعرف بالنسبة إلى وظيفته وهدفه. وينظر إلى النص الأصل على أنه وعاء من المكونات التواصلية، ويتم تقويمه بالنسبة إلى معيار الوظيفية. وفضلا عن ذلك، يحدد دفتر شروط دقيق خصائص النتاج المتمثل في الترجمة النهائية، وبعبارة أخرى، هدف التواصل، وطريقة تحقيقه، والأجر المتوقع، والمهل المفروضة، إلخ. وباختصار، تحدد الوظيفة مجمل عمل المترجم الذي ينبغي عليه أن يتصوره نسبة إلى الحاجات البشرية في الموقف التواصلي المستهدف من جهة، ونسبة إلى الأدوار الاجتماعية في ثقافة الوصول من جهة أخرى. وتميز هولز- مانتاري (Holz-Mänätri 1984: 17) على الأقل سبعة أدوار وفقا للمواقف: مدرب الترجمة، والآمر بالترجمة، ومنتج النص الأصل، والمترجم، ومستعمل النص الهدف، والمتلقي النهائي.

يعتبر المترجم في تسلسل الأدوار هذا مجرد "ناقل للرسائل": ينبغي عليه أن ينتج تواصلا خاصا، وفي وقت معين، ولهدف محدد. ولكن ينبغي عليه أن يعمل بوصفه

خبيرا في التفاعل بين الثقافات فينصح الزبون الآمر بالترجمة، ويتفاوض معه عند الحاجة حول أفضل السبل لبلوغ هدفه.

ترى هولز- مانتاري أنه ينبغي على المترجم أن يتخذ كل الإجراءات المفيدة للتغلب على الصعوبات التي تمنع الوصول إلى الهدف المنشود. وفضلا عن ذلك، يتوجب عليه أن يتفاوض مع الآمر بالعمل حول الوقت المناسب، وحول أفضل الشروط لنشر ترجمته. وباختصار، المترجم مسئول عن نجاح التواصل، وكذا عن فشله في الثقافة الهدف. وترى هولز- مانتاري أن هذه الشروط تنطبق على كل أنماط المنتجات الثقافية.

وهكذا تبدو الترجمة نشاطا غائيا تتم ممارسته في إطار حزمة معقدة من الأفعال، ويخضع لهدف تواصلي شامل. ولا تكتفي هولز- مانتاري بإدراج العناصر الترجمية التي تدخل في تعريف الترجمة، مثل وحدة الترجمة، والنص الأصل أو الجنس الاستدلالي، ولكنها تأخذ أيضا بعين الاعتبار كل مكونات التواصل بين الثقافات، لاسيما عملية إنتاج النصوص في كل لغة، ودور الخبير والثقافة الخاصة لكل زبون.

تنادي نظرية الفعل على سبيل المثال بإحلال العناصر الثقافية المناسبة للثقافة الهدف محل عناصر النص الأصل، حتى وإن بدت بعيدة عن العناصر الأصلية، فالأمر الجوهري يتمثل في الوصول إلى الهدف المنشود نفسه في إطار التواصل بين الثقافات. والفعل وحده هو الذي يحدد في نهاية الأمر طبيعة الترجمة وطرقها.

لقد تعرضت هذه المقاربة الجذرية نوعا ما لانتقاد العديد من علماء الترجمة، ويشمل ذلك أنصار المقاربة الوظيفية من أمثال نورد (Nord 1991: 28)، فهم يلاحظون على وجه الخصوص عليها ابتعادها عن واقع ممارسة مهنة المترجم الذي لا يستطيع

دائما أن يقرر كل شيء. زد على ذلك أن بعض علماء الترجمة مثل نيومارك (Newmark 1991: 106) يلاحظون عليها رطانة مقاربتها الموجهة جدا نحو التجارة والعلاقات العامة، في حين أن هذا المجال لا يمثل سوى جانبا ضئيلا من النشاط الترجمي. وباختصار، يتمثل فضل نظرية الفعل في الترجمة في أنها وضعت مفاهيم الفعل والوظيفة في صلب عملية الترجمة، ولكنها لم تستنفد طبيعة الترجمة متغيرة الشكل.

(٣) نظرية الوظيفة

تعني كلمة "skopos" اليونانية القصد والهدف أو القصدية. وتستخدم في علم الترجمة للإشارة إلى النظرية التي وضعها في ألمانيا هانس فيرمير Hans Vermeer في نهاية السبعينيات. وهناك أيضا من أنصارها كريستيان نورد Kristiane Nord (١٩٨٨)، ومارغريت أمان Margaret Amman.

تندرج النظرية- من وجهة نظر مفهومية- في الإطار الإبيستمولوجي نفسه لنظرية الفعل في الترجمة، بمعنى أنها تهتم قبل كل شيء بالنصوص البراغماتية ووظائفها في الثقافة الهدف. وهكذا، ينظر إلى الترجمة على أنها نشاط إنساني خاص قبل كل شيء (النقل الرمزي) ذو قصدية محددة (le skopos)، ونتاج نهائي خاص به (النص المترجم le translatum أو le translat).

انطلق فيرمير (١٩٧٨) من مسلمة مفادها أن مناهج الترجمة وإستراتيجياتها يحددها جوهريا هدف النص المراد ترجمته أو قصديته. وبناء على ذلك، تتم الترجمة وفقا للوظيفة skopos. ومن هنا جاءت صفة "الوظيفية" fonctionnelle المقترنة بهذه النظرية. ولكن الأمر لا يتعلق بالوظيفة التي يحددها الكاتب للنص الأصل؛ بل على العكس من ذلك، بوظيفة مستقبلية تسند إلى النص الهدف، وترتبط بالآمر بالترجمة.

وبعبارة أخرى، إن الزبون هو الذي يحدد هدفا للمترجم وفقا لحاجاته وإستراتيجياته التواصلية.

ولكن ذلك لا يتم خارج الإطار المنهجي. ينبغي على المترجم أن يراعي قاعدتين أساسيتين: نصية داخلية intratextuelle وتناصية intertextuelle، فهناك، من جهة، "قاعدة التماسك النصي" التي تنص على أن النص الهدف ينبغي أن يكون متماسكا بما يكفي من الداخل en interne ليفهم الجمهور الهدف بشكل صحيح أنه يشكل جزءا من عالمه المرجعي. وهناك، من جهة أخرى، قاعدة الأمانة" التي تنص على أن النص الهدف ينبغي أن يحافظ على علاقة كافية مع النص الأصل لئلا يبدو ترجمة حرة جدا.

تبدو القاعدتان عامتان وغامضتان جدا. لكن فيرمير تمكن بفضل إسهام كاتارينا رايس Katarina Reiss (١٩٨٤) ليس فقط من تحديد عمل نظريته، وإنما أيضا توسيع إطارها ليشمل حالات عملية وظواهر خاصة لم تؤخذ بعين الاعتبار حتى ذلك الوقت.

لقد أدرج فيرمير على وجه الخصوص الإشكالية النمطية لدى رايس. وإذا توصل المترجم إلى ربط النص الأصل بنمط نصي أو بجنس استدلالي، فإن ذلك سوف يساعده مساعدة أفضل على حل المشكلات التي تواجهه في عملية الترجمة. وفي هذا المنظور، يأخذ فيرمير بعين الاعتبار أنماط النصوص التي عرفتها رايس (النصوص الإخبارية، والنصوص التعبيرية، والنصوص الداعية إلى الفعل opérationnels) لتحديد الوظائف التي ينبغي المحافظة عليها في أثناء النقل تحديدا أفضل.

وهكذا تم النظر إلى النص بعد ذلك على أنه "عرض معلومة" يقدمه منتج لغة أولى لمتلق من الثقافة نفسها. واعتبر النص منذ ذلك الوقت "عرضا ثانويا" لأنه يفترض نقل المعلومة نفسها تقريبا، وإنما لمتلقين من لغة وثقافة مختلفتين، ففي هذا المنظور، يتم

تحديد انتقاء المعلومات واختيار هدف التواصل بتمعن، إذ أن ذلك يرتبط بحاجات المتلقين المستهدفين في الثقافية المتلقية وتوقعاتهم. وهذه هي وظيفة النص.

يمكن أن تكون الوظيفة مطابقة أو مختلفة بين اللغتين المعنيتين: إن كانت الوظيفة مطابقة، فإن فيرمير ورايس يتكلمان عن "استمرار وظيفي"؛ وإن كانت مختلفة، فإنهما يتكلمان عن "اختلاف وظيفي"، فمبدأ الترجمة في الحالة الأولى التماسك التناصي، وفي الحالة الثانية التلاؤم مع الوظيفة.

يقوم الأمر الجديد في هذه المقاربة على حقيقة أن تترك للمترجم مهمة تقرير الوضع الذي سوف يمنحه للنص الأصل، فالنص الأصل يمكن أن يكون وفقا للوظيفة مجرد نقطة انطلاق لتكييف أو لنموذج أدبي يراد نقله نقلا أمينا. يعني ذلك أنه يمكن أن يكون للنص نفسه عدة ترجمات مقبولة؛ لأن كلا منها يحقق وظيفة خاصة. وباختصار، إن الوظيفة معيار التقويم، ولا وجود لترجمة صالحة من دونها.

لقد تعرض هذا الموقف المغالي للانتقاد لأنه يقطع العلاقة الأصلية الموجودة بين النص الأصل والنص الهدف لصالح العلاقة الخاصة بين الترجمة والوظيفة. وترى سنيل-هورنبي (Snell-Hornby 1990: 84) أن النصوص الأدبية — بعكس النصوص البراغماتية- لا يمكن ترجمتها وفقا للوظيفة فقط: إنها تعتبر أن وضع الأدب ووظيفته يتجاوزان تجاوزا كبيرا الإطار البراغماتي الذي حدده فيرمير ورايس.

وفضلا عن ذلك، ينتقد نيومارك (Newmark 1991: 106) التبسيط المفرط لعملية الترجمة وإبراز الوظيفة على حساب المعنى بشكل عام.

وأخيرا، يلاحظ كسترمان (Chesterman 1994: 153) أن التركيز على الوظيفة يمكن أن يؤدي إلى خيارات غير مناسبة على مستويات أخرى: يمكن أن يخالف المترجم خياراته المفرداتية، والتركيبية أو الأسلوبية بهدف "التمسك" بالوظيفة فقط.

وتبقى نظرية الوظيفة على الرغم من هذه الملاحظات أحد الإطارات المفهومية الترجمية الأكثر تماسكا والأكثر تأثيرا.

(٤) نظرية اللعب

وضع هذه النظرية عالم الرياضيات جون فون نيومان John Von Neumann بهدف وصف علاقات المصلحة المتضاربة التي تقوم على أساس منطقي. وتقوم الفكرة على إيجاد أفضل إستراتيجية للعمل في موقف معين، بهدف الوصول إلى حل يعد بأعلى ربح وأقل خسارة: إنها "إستراتيجية الحد الأدنى من الخسارة والحد الأعلى من الربحminimax ". وقد طبقت هذه النظرية تباعا على مختلف مجالات النشاط البشري، ومنها النشاط الترجمي.

لقد لفتت فكرة أعلى ربح انتباه علماء الترجمة: كيف نساعد المترجم على الوصول إلى القرار الأمثل من دون ضياع كبير في الوقت؟ يرى ليفي (Levy 1967) أن نظرية اللعب يمكن أن تساهم في ذلك مساهمة كبيرة: "تميل نظرية الترجمة لأن تكون معيارية: إنها تهدف إلى تعليم المترجمين الحلول المثلى. ولكن عمل المترجم الحقيقي عمل براغماتي: يلجأ المترجم إلى الحل الذي يقدم الحد الأعلى من التأثير بتقديم الحد الأدنى من الجهد. وبعبارة أخرى، إنه يلجأ حدسيا إلى إستراتيجية الحد الأدنى من الخسارة والحد الأعلى من الربح.

ولتوضيح مقاربته، يعرف ليفيLevy الترجمة بأنها "موقف" يختار فيه المترجم "توجيهات"، أي أنه يلجأ إلى خيارات دلالية وتركيبية ممكنة بهدف الوصول إلى الحل الأمثل.

تتبنى غورليه Gorlée (١٩٩٣) المقاربة نفسها ولكنها تنطلق من مسلمات نظرية مختلفة. تعتمد غورليه على مفهوم "لعبة اللغة" الذي أتى به فيتجنشتاين Wittgenstein في

كتاب *مداولات منطقية- فلسفية* *Tractatus logico-Philosophicus* فتدرس ما تطلق عليه اسم "لعبة الترجمة". وتشبه الترجمة بلغز ثم بلعبة الشطرنج: "إن لعبة الترجمة هي لعبة اتخاذ قرار شخصي تقوم على خيارات عقلانية ومنظمة من جملة حلول بديلة" (Gorlée 1993:73).

إن التشبيه باللعب مبرر بالنسبة إلى غورليه لأن اللعب يهدف دائما إلى إيجاد الحل الأنسب وفقا لقواعد اللعبة المعنية. وإن هذا التقريب يساعد على توضيح البعد النوعي للترجمة، فالترجمة، مثل اللعب، تنطوي على جانب من الغموض له إيجابيات وسلبيات في آن معا. إن التشابه مع لعبة الشطرنج يساعد، على سبيل المثال، على وضع القواعد التي تحكمها بموازاة القواعد التي تحدد اللغة. ولكن الأمر في الترجمة لا يتعلق "بالفوز" أو "بالخسارة" في اللعبة، وإنما "بالنجاح" أو "بالفشل" في إيجاد الحل الأمثل (Gorlée 1993:75).

إن نظرية اللعب لا تأخذ بعين الاعتبار العوامل الانفعالية والنفسية والأيديولوجية التي يمكن أن تتدخل في عملية الترجمة، لاسيما بالنسبة إلى بعض أنماط النصوص. كما أنها لا تحسب حساب الثغرات التأهيلية والمعرفية التي يمكن أن تظهر لدى المترجم أو في النص. وباختصار، يتعلق الأمر بمقاربة شكلانية ومثالية للترجمة لا تأخذ أحيانا بعين الاعتبار القيود المحتملة المتعلقة بواقع الحرفة.

وفضلا عن ذلك، تتمثل إشكالية تطبيق نظرية اللعب على الترجمة في غياب البعد المتعلق باللعب ludique ("اللعب" على وجه التحديد). وإنه لمن الواضح أن الاهتمام الإستراتيجي يجعل اللذة التي يمكن أن يحصل عليها المترجم أو القارئ من "لعبة الترجمة" وهمية. وإذا كان الهدف البحث بانتظام عن الحل الأمثل، فإنه من الأفضل أن تقتصر هذه المقاربة على الترجمة البراغماتية، وأن تقتصر طرائقها على بعض أنماط النصوص المختصة.

وأخيرا، إن مفهوم "الإستراتيجية" الرئيس غير قابل للتطبيق على الترجمة على علاته، ولسبب بسيط هو أن المترجم لا يتحكم في العملية كلها، فهو على سبيل المثال ليس مؤلف النص الأصل، ويخرج هذا المضمون الأصلي عن إرادته كليا، وهو، فضلا عن ذلك، ليس المتلقي الوحيد للنص المترجم، ولا يتحكم بجزء كبير من تأويل الترجمة، لأن كل جمهور يفهمها على طريقته ووفق ثقافته، وإن كل ذلك يجعله غير قادر على تحديد إستراتيجية شاملة، وعلى تطبيقها تطبيقا دقيقا، من دون اعتبار الثوابت المؤثرة في النظام المتلقي.

(٥) نظرية النظام المتعدد

تشير نظرية النظام المتعدد polysystème إلى الإطار المفهومي الذي عرضه إيتامار إيفن-زوهار Itamar Even-Zohar في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته. انطلق إيفن-زوهار من مفهوم "النظام" الذي أتى به الشكلانيون الروس مثل تينيانوفTynianov (١٩٢٩)، وطبقه على دراسة الأدب بوصفه "نظام الأنظمة"، باعتبار أن الهدف هو تحليل ووصف عمل الأنظمة الأدبية وتطورها. وقد أتى بمثال على ذلك هو الأدب المترجم إلى اللغة العبرية.

يقصد إيفن-زوهار "بالنظام المتعدد" مجموعة غير متجانسة ومتدرجة من الأنظمة التي تتفاعل بطريقة ديناميكية في نظام شامل. وهكذا، فالأدب المترجم ليس سوى مستوى من مستويات أخرى في النظام الأدبي الذي يندرج ضمن النظام الفني بشكل عام، ولكن النظام الأخير يشكل أيضا جزءا مكملا من النظام الديني أو السياسي. وباختصار، يتعلق الأمر بنظام متعدد ذي جذور اجتماعية وثقافية.

إن الفكرة الرئيسة في النظام المتعدد هذا هي فكرة المنافسة التي توجد بين مختلف مستويات أو "طبقات" النظام. وهكذا، هناك توتر بين مركز النظام ومحيطه، أي بين

الأجناس الأدبية المهيمنة في وقت معين وبين الأجناس التي تنزع إلى الهيمنة. لأن النظام الأدبي المتعدد يضم في آن واحد المؤلفات الكبرى والأنماط النصية الأقل قبولا مثل الحكايات الموجهة للأطفال أو الروايات البوليسية المترجمة.

يحلل إيفن-زوهار هذا التنافس بين الأشكال الأدبية بعبارتي "المبادئ الأولية" و"المبادئ الثانوية": الأولى مجددة، والثانية محافظة. وهكذا، عندما يصل شكل أدبي "أولي" إلى مركز النظام، فإنه ينزع لأن يكون أكثر فأكثر جمودا ومحافظة، حتى يزيحه شكل "ثانوي" آخر، أكثر حيوية وأكثر تجديدا، وهكذا دواليك.

وعند تطبيق نظرية النظام المتعدد على المؤلفات المترجمة يتم الاهتمام بجانبين: الدور الذي يقوم به الأدب المترجم في إطار نظام أدبي بشكل خاص من جهة، وتبعات فكرة النظام المتعدد على الدراسات الترجمية بشكل عام من جهة أخرى.

وأما بخصوص الجانب الأول فيرى إيفن – زوهار أن المترجمين يميلون إلى الخضوع لـ "معايير" النظام الأدبي المتلقي، سواء على مستوى انتقاء الأعمال أو على مستوى إعادة صياغتها/ كتابة الترجمات.

يحتل الأدب المترجم بشكل عام موقعا محيطيا في النظام المتلقي، ولكن درجة الابتعاد عن المركز تتغير وفقا للأنظمة. ويحدد إيفن-زوهار ثلاثة أنماط من الحالات:

١- **الحالة الأولى** هي حالة "الآداب الفتية" قيد التكوين: في هذه الحالة ينزع الأدب إلى القيام بدور مهم بوصفه يحمل تجديدا وعلامات مقارنة.

٢- **الحالة الثانية** هي حالة الآداب "الوطنية" المحيطية: في هذه الحالة، ينزع الأدب المترجم إلى احتلال مكانة أساسية لأنه يصدر عن أمة" أكثر قوة وتأثيرا.

٣- **الحالة الثالثة** هي حالة "الآداب" التي تعاني "من أزمة": في هذه الحالة، ينزع الأدب المترجم إلى احتلال الفراغ الذي خلفه الكتاب "المواطنون"، وإلى أن يصبح رئيسا في المجال الأدبي للغة الهدف.

يتعلق الأمر في جميع الأحوال بهيمنة غير متوقعة وتطورية، لأن الأدب المترجم خاضع لمكانة الآداب الأخرى في النظام. ويركز إيفن-زوهار (Even-Zohar 1990: 51) على النقطة التالية: "لم تعد الترجمة تشكل ظاهرة تم تحديد طبيعتها وحدودها تحديدا نهائيا، وإنما نشاطا خاضعا لعلاقات داخلية في نظام ثقافي خاص".

وهكذا، تقود نظرية النظام المتعدد إلى اعتبار الترجمة نظاما ثانويا مرتبطا بالسياق الثقافي العام للمجتمع المتلقي، فهي ليست نظاما مستقلا يتمتع بمنطقه الخاص به، وإنما نظاما خاضعا لتفاعلات الأنظمة الأخرى الموجودة.

يترتب على تصور الترجمة هذا عدة نتائج نظرية وعملية:

١- لا ينظر إلى عملية الترجمة على أنها عملية نقل بيلغوي، وإنما بين الأنظمة. يعني ذلك أن الترجمة تندرج في سياق اجتماعي ثقافي أكثر اتساعا، وأنه ينبغي أخذ هذا السياق المتشعبhyper-contexte في أثناء النقل.

٢- النص/ العمل المترجم لا يحلل بالإحالة إلى مفهوم التعادل، وينظر إليه في حد ذاته على أنه موضوع مستقل. وهو كيان كامل العضوية يندرج في الإطار العام للنظام الهدف.

٣- لا تحلل طرق الترجمة وفقا لكل نظام لغوي، وإنما وفقا "للمعايير" الخاصة بالسياق الاجتماعي الثقافي بالمعنى الواسع (الجنس الأدبي، والأيديولوجيا السائدة، والسياق السياسي).

لقد طور جدعون توري (Gideon Toury 1995) آفاق الدراسة في إطار علم الترجمة الوصفي الخاص به. ووضع نصب عينيه هدفا رئيسا يتمثل في تحليل ظواهر ترجمية بطريقة منهجية، وفي إطار نظري موحد.

يعرف توري الترجمة بأنها نقل، ويوضح أن كل عملية نقل تتضمن من جهة "ثابتا ضمن التحول"، ومن جهة أخرى "ثلاثة أشكال قاعدية من العلاقات:

١- بين كل من الكيانين والنظام الذي يندرجان فيه.

٢- بين الكيانين نفسيهما.

٣- بين الأنظمة المعتبرة" (Toury 1995: 12).

إن هذه الأنماط من العلاقات مرتبطة ببعضها البعض، وتساعد على تعريف الترجمة بأنها نقل بيلغوي، أو بعبارة أكثر دقة، بأنها نقل تناصي. ويقترح توري (Toury 1995: 14) مستوحيا من مفهوم التشابه العائلي Familienähnlichkeiten لدى فيتجنشتاين "أن نرى في الترجمة مجموعة من الظواهر تشبه علاقاتها العلاقات ضمن العائلة".

وباختصار، تفيد نظرية النظام المتعدد في تطوير علم ترجمة تحليلي ذي طبيعة منهجية. وهكذا، تشكل هذه النظرية امتدادا للمقاربات الترجمية التي تركز على الهدف تركيزا كبيرا، لأنها تتصور الترجمة بطريقة شاملة في الأنظمة الثقافية المتلقية. ولكن تحليلها علاقات الهيمنة بين الآداب القومية والأجنبية يكتسب صبغة أيديولوجية يمكن أن تشوه مفهوم الترجمة بشكل عام.

(٦) تبين الوضع

يقدم علم الترجمة، مقارنة بمجالات علمية أخرى قريبة منه، عددا قليلا نسبيا من النظريات الخاصة والوطيدة. وقد حاولت، في هذا الفصل، تقديم لمحة موجزة عن النظريات الأكثر شهرة وتأثيرا.

وتتميز تلك النظريات جوهريا من خلال الجانب الذي تفضله في التنظير للترجمة. وهكذا تركز النظرية التأويلية (مدرسة باريس) على تفوق المعنى وفهمه في عملية الترجمة. وأما نظرية الفعل فتركز على الدور الأساسي للمترجم بوصفه فاعلا اقتصاديا مكلفا بإجراء الاتصال بين الممول والزبون. وتنطلق نظرية الوظيفة من مسلمة

أنه لا توجد ترجمة من دون هدف محدد، وأن وظيفة النص تحدد طريقة ترجمته. وتركز نظرية اللعب على البعد التعاقدي للترجمة، وعلى ضرورة معرفة "قواعد اللعبة" وإتقانها قبل الانخراط في عملية الترجمة. وتعتبر نظرية النظام المتعدد الترجمة جزءا من كل أكثر شمولا، ألا وهو النظام الأدبي بمجمله، وتنادي بمعرفة "المعايير" التي تحكم النظام للتمكن من الاضطلاع بمهمة الترجمة في هذا النظام المتعدد أو ذاك.

ويتضح أن كل نظرية من النظريات السابقة تتبنى وجهة نظر خاصة وأصيلة، غير أن فضل جميعها يتجلى في أن تأملها يركز تركيزا أساسيا على عملية الترجمة أو على المترجم. وهي لا تهتم في المقام الأول باللغة والنص، وتركز على خصوصيات النشاط الترجمي في حد ذاته ولذاته. وإن منظورها ترجمي بشكل واضح وحصري. وفضلا عن ذلك، يؤكد معظم أصحاب هذه النظريات رغبتهم في استقلال المجال العلمي، ويضعون في سبيل ذلك مفاهيم ومناهج خاصة بتطوره.

وعلى الرغم من فضل هذه الجهود الأكيد، يبقى التأثير الحقيقي لهذه النظريات محدودا؛ لأنها من جهة غير معروفة كثيرا لدى الممارسين على أرض الواقع، ولأنها من جهة أخرى ذات طبيعة تفسيرية، ولا تقدم للمترجمين المناهج التي يتوقعونها. وينجم عن ذلك أن صعوبة تطبيقها الفوري ينحو إلى توسيع الهوة التي تفصل بين النظرية والتطبيق. ويبقى أنه ينبغي وضع أصول لتعليم الترجمة انطلاقا من هذه النظريات لتوضيح فائدتها لمترجمين مبتدئين أو ضليعين يبحثون دائما عن "وصفات" أكثر من بحثهم عن شروح مجردة.

(٧) من أجل التعمق في الموضوع

- حول النظرية التأويلية في الترجمة:

-Lederer M. (1994), *La traduction aujourd'hui*, Paris : Hachette.

- حول نظرية الوظيفة:

-Vermeer H.-J. (2000), "Skopos and Commission in translational Action", in Venuti (ed), *The Translation Studies Reader*, London: Routledge, pp.221-232.

- حول نظرية النظام المتعدد:

-Hermans, T. (1999), *Translation in Systems. Descriptive and Systemic Approaches Explained*, Manschester: St. Jerome Publishing.
-Toury G.(1995), *Descriptive translation Studies and Beyond*, Amesterdam and Philadephia: John Benjamins.

(٨) اختبر معارفك

أ) كيف تفسر العلاقة بين "المعنى" و"التأويل" في إطار النظرية التأويلية؟

ب) كيف يحدد مفهوم "الهدف" أو "القصدية" طريقة الترجمة في نظرية الوظيفة؟

جـ) إلى أي حد يمكن تشبيه الترجمة بلعبة الشطرنج؟

د) ما تأثير التأمل في "أنماط النصوص" على علماء الترجمة؟

هـ) هل مفهوم "السياق" أساسي في النظريات الترجمية؟ ولماذا؟